الجزء الخامس عشر — المجلد الخامس

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب

المنار

١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

(قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و « مناراً » كمنار الطريق)

(مصر في يوم السبت غرة شعبان سنة ١٣٢٠ — ١ نوفمبر (تشرين ٢) سنة ١٩٠٢)

الاسلام والنصرانية ، مع العلم والمدنية

(حرية العلم في أوربا الآن ، ونسبتها الى الماضي والحاضر في الإسلام)

(وهو المقال السادس لذلك الامام الحكيم)

لم يبق علينا من الكلام الا ما يتعلق بالأمر الرابع مما ذكرته الجامعة(١) وهو « ان تمكن العلم والفلسفة من التغلب على الاضطهاد المسيحي في أوربا وعدم تمكنهما من التغلب على الاضطهاد الاسلامي دليل واقعي على أن النصرانية كانت أكثر تسامحاً مع الفلسفة »

ليس من السهل عليّ أن أعتقد أن أديباً كصاحب الجامعة يقول هذا القول وهو ناظر إلى الحقيقة بكلتا عينيه مع معرفته بلسان الغربيين

(١) يذكر القراء ان كلام الجامعة في الطعن بالإسلام كان مبنياً على أربعة أمور تقدم الرد على ثلاثة منها وفي هذا المقال الرد على الرابع

واطلاعه على ما كتبوا في هذه المسألة وهي من أهم المسائل التاريخية . وإنما هي عين الرضى تناولت من حاضر الحال ومما انتهى اليه سير التاريخ فتناولت ثم أملت على قلبه ماجرى به قلمه

هل يصح ان نُسمّي الاستكانة للغالب تسامحاً ؟ وهل يُسمّى العجز مع التطلع للنزاع عند القدرة حلما ، أم يُسمّى غلّ الأيدي عن الشر بوسائل القهر كرماً ، ؟هل تعدمسا كنة جناب البابا لملك إيطاليا في مدينة واحدة واجتماع الكرسيين العظيمين كرسي المملكة الايطالية والمملكة البابوية في عاصمة واحدة تسامحاً من قداسة البابا مع الملك ؟ أليس الأجدر بالمنصف أن يسمي ذلك تسامحاً من الملك مع البابا لأنه صاحب القوة والجيش والسلطنة ويمكنه أن يسلب البابا تلك الخيالة التي بقيت له من السلطة الملكية ؟ كما أن الأليق به أن يسمي تلك الحالة التي عليها أهل أوربا اليوم من طمأنينة العلم بينهم بجانب الدين تساهلا من العلم مع الدين لا تسامحاً من الدين مع العلم بعد ما كان بينهما من الحوادث ما كان وبمدغلبة العلم واستيلائه على عرش السلطان في جميع الممالك ورضاء الدين بأن يكون تابعاً له في أغلبها

(اقتباس مدنية أوربا من الاسلام ، وأسباب ظهورها التام)

السبب الأول الجمعيات : كان جلادبين العلم والدين في أوربا وتألبت لنصرة العلم جمعيات وأحزاب منها ما اتخذ السرّ حجاباً له حتى يقوى ومنها ما ابتدأ بالمجاهرة . وكان الدين يظفر بالعلم كما سبق بيانه لكثرة أعوانه وضعف أعوان العلم حتى أشرقت الآداب المحمدية على تلك البلاد من سماء الأندلس وتبع إشراق تلك الآداب واشتغال الناس بها سطوع نور العلم لعربي من الجانب الشرقي كما ذكرنا . وقد وجد هذان النوران استعداداً

من النفوس للاستضاءة بهما في السبيل التي تؤدي بهما الى المدنية التي كانا يحملانها. هذا الاستعداد كسبته الانفس بما ضايقها من غلو رؤساء الدين في استعمال سلطانهم واشتدادهم في استعباد العقل والوجدان حتى ضاق ذرع الفطرة عن الاحتمال فأخذ الشعور الإنساني يتلمس السبيل الى الخلاص وإذ لاح له هذان النوران اتخذهما له هداية واستقبلهما بوجهه وكان بعد ذلك ما كان من تأثر الدين لأهل العلم وإحراقهم بالنيران، ونفيهم من الأوطان، ومقاومة رؤساء الدين للحكومات ولأهل الأفكار المستقلة في أدنى الأشياء وأعلاها حتى إنه عند ما شرع ملوك فرنسا في فرش شوارع باريس بالبلاط على الاسلوب الذي وجدوه في مدينة قرطبة وصدر الأمر بمنع تربية الخنازير في تلك الشوارع أغضب ذلك قسوس القديس أنطوان ونادوا بان خنازير القديس لا بد أن تمر في الشوارع على حريتها الأولى . وحصل لذلك شغب عظيم اضطر الحكومة أن تسمح بذلك مع صدور الأمر بأن توضع في أعناقها أجراس . وقالوا ان الملك فيليب السمين مات بسقطة عن فرسه عند ما انزعج الفرس من منظر خنزير وصلصلة الجرس في عنقه

لقائل ان يقول : ان القسوس في ذلك الزمان كان يمكنهم أن يمتنعوا من وضع الأجراس في أعناق الخنازير فرضاهم بذلك يعد تسامحاً عظيما مع العلم (أو الصناعة) ويسهل عليَّ أن أوافقه على ان مثل هذا الضرب من التسامح في أجراس الخنازير كان يظهر من حين الى حين الا أنه فيما أظن لا يكفي في تشييد هذه المدنية التي يفتخر بها الأوربيون اليوم ونحن لا نبخسها قدرها كذلك

السبب الثاني الضغط الديني : شدة الحاجة وغلو الرؤساء كانا يوقدان الغيرة في قلوب طلاب العلوم فلم تفتر لهم همة فنال أمرهم وا كتشفوا كثيراً من

الحقائق التي نفعت العامة ونبهت العقول للأخذ بها يجدّون فيه وصارت الحرب بينهم وبين رؤساء الدين سجالاً الى أن ظهر دعاة الاصلاح الديني (البروتستانت) فانضم دعاة العلم اليهم ظناً منهم أن سيكونون معهم من المجاهدين في سبيل العلم. وكان منهم إيراسم الشهير فلما انتصر طلاب الاصلاح ودالت لهم دولة استمروا يعاقبون بالموت على الافكار التي تخالف ظاهر ما يعتقدون كما تقدم فانفصل إيراسم ومن معه من حماة الحرية واستقلال الارادة الشخصية وترك المصلحين يتفرقون شيعاً ويقتل بعضهم بعضاً وقال: ما كنت أظن ان دعاة الاصلاح يكونون كذلك اعداء العلم

هذه الطوائف التي تفرقت عقائدها في الإصلاح لم تنتظر الا أن تأمن عدوها العام وهو الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فلما امنته أخذ بعضها يصول على بعض واشتعلت نيران الحروب بينهم. قال أحد أفاضل مؤرخيهم: « وكلما ارتفعت طائفة منهم الى عرش القوة لوثت يديها بالجرائم في العمل لإفناء البقية حتى سئمت النفوس دوام تلك الحال ووجدت من توالي حوادث الانتقام وظهور مضاره في كل طائفة ان الأفضل لكل طائفة ان تمنح الأخرى من الحرية ما لا تستغني عنه واحدة منها. والعلم كان يعمل عمله في كشف الحقائق وترقية الآداب وكان من أقوى المنبهات الى مضار الحروب ومفاسد العدوان على حرية الاشخاص من أي طائفة كانت. من هذا نشأ ذلك الأصل العظيم أصل التسامح والرضى بمجاورة المخالف في الرأي. نشأ من القهر والقسوة التي كانت كل طائفة تعامل بها الاخرى » انتهى كلام المؤرخ بالمعنى

السبب الثالث الثورة : ولا حاجة بي الى ذكر ماجاءت به الثورة

الفرنسية وكيف كانت قيامتها على الدين ورؤسائه مما هو معلوم . وإنما أنبه القارئ الى الاعتبار بما تقدم من القول ، وبما يمكنه ان يقف عليه في كتب القوم ، ليعلم ان الدين المسيحي في أوربا لم يحتمل العلم فضلا و[illegible] قويت عليه أحزاب العلم فسامره استكانة وخضوعاً ، ولو [illegible] يستطع الى ذلك سبيلا .

[illegible] : رؤساء الدين المسيحي رجال ذوو عزيمة و[illegible] دينهم قلما يدانيهم فيها رؤساء دين من الأديان . وهم مع غلوهم في الدين واشتدادهم في استعمال سلطانهم على النفوس كانوا ولا يزالون يتخذون كل وسيلة لتأييد دينهم . وهم أشد الناس حرصاً على تقويم أركانه ودفع الشبه عنه ولم يزدهم العلم الجديد الا وسائل وسبلا لترويج عقائده وآدابه ولم تفتر لهم همة في نشره وتزيينه للقلوب . ومع ذلك كله نرى ان رجال العلم وحماة المدنية يتململون منه ، والعامة من الشعوب في تخاذل عنه ، والأمة الفرنسية التي كانت تدعى بنت الكنيسة أصبحت من أشد الناس عليه ، ورأت فلسفتها أن تحدد حرية أهل الدين في تعاليمهم واجتماعهم . كل ذلك ومدارس اللاهوت لا تزال عامرة وطلاب اللاهوت يعدون بالألوف . كل ذلك وكثير من الدول ترى من مزاياها حماية الدين المسيحي في أقطار الأرض . قال أحد رؤساء البروتستان في خطبة من خطبه التي ألقاها في بعض البلاد الفرنسية سنة ١٩٠١ بعد كلام له في أن المسيحية رومانية أو بروتستانية فقدت خاصتها الدينية كما فقدت فائدتها الاجتماعية مانصه مترجماً : « اذا كان الدين المسيحي ليس شيئاً سوى الكثلكة المحتاجة الى الاصلاح (المذهب الروماني) أو الكثلكة التي دخلها

الإصلاح بالفعل (المذهب البروتستنتي) فالقرن الموفي بالعشرين (القرن الحاضر) لا يكون مسيحياً أبداً».

وقد جاء في كلام هذا الخطيب ما يصرح بأنه يريد أن يطالب للمسيحية بمعنى آخر ينطلق كل الانطلاق من اعتقاد المسلمين بها فإن وفق للنجاح في سعيه زال الخلاف - إن شاء الله - بين الدين والعلم أي بين المسيحية والإسلام

عود إلى ساحة الإسلام: آخذ بيد القارئ الآن، وأرجع به إلى ما مضى من الزمان، وأقف به وقفة بين يدي خلفاء بني أمية والأئمة من بني العباس ووزرائهم، والفقهاء والمتكلمون والمحدثون والأئمة المجتهدون من حولهم، ~~والأدباء~~ والمؤرخون والأطباء والفلكيون والرياضيون والجغرافيون والطبيعيون وسائر أهل النظر من كل قبيل محيطون بهم، وكل مقبل على عمله فإذا فرغ عامل من العمل أقبل على أخيه ووضع يده في يده يصافح الفقيه المتكلم والمحدث الطبيب والمجتهد الرياضي والحكيم وكل يرى في صاحبه عوناً على ما يشتغل هو به. وهكذا أدخل به بيتاً من بيوت العلم فأجد جميع هؤلاء سواء في ذلك البيت يتحدثون ويتباحثون والإمام البخاري حافظ السنة بين يدي عمران بن حطان الخارجي يأخذ عنه الحديث وعمرو بن عبيد رئيس المعتزلة بين يدي الحسن البصري شيخ السنة من التابعين يتلقى عنه وقد سئل الحسن عنه فقال للسائل. «لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته وكأن الأنبياء ربته إن قام بأمر قعد به وإن قعد بأمر قام به وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له ما رأيت ظاهراً أشبه بباطن منه ولا باطناً

أشبه بظاهر منه » بل أرفع بصري فأجد الامام أبا حنيفة أمام الامام زيد ابن علي (صاحب مذهب الزيدية من الشيعة) يتعلم منه أصول العقائد والفقه ولا يجد أحدهم من الآخر الا مايجد صاحب الرأي في حادثة ممن ينازعه فيه اجتهاداً في بيان المصلحة وهما من أهل بيت واحد — أمرٌ به بين تلك الصفوف التي كانت تختلف وجهتها في الطلب وغايتها واحدة وهي العلم وعقيدة كل واحد منهم أنّ فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة كما ورد في بعض الاحاديث (١)

الخلفاء أئمة في الدين مجتهدون وبأيديهم القوة وتحت أمرهم الجيش، والفقهاء والمحدثون والمتكلمون والأئمة المجتهدون الآخرون هم قادة أهل الدين ومن جند الخلفاء. الدين في قوته والعقيدة في أوج سلطانها وسائر العلماء ممن ذكرنا بعدهم يتمتعون في اكنافهم بالخير والسعادة ورفه العيش وحرية الفكر لافرق في ذلك بين من كان من دينهم ومن كان من دين آخر فهنالك يشير القاري المنصف الى أولئك المسلمين، وأنصار ذلك الدين، ويقول: ههنا يطلق اسم التسامح مع العلم في حقيقته، ههنا يوصف الدين بالكرم والحلم، ههنا يعرف كيف يثق الدين مع المدنية، عن هؤلاء العلماء المكناء تؤخذ فنون الحرية في النظر، ومنهم تهبط روح المسالمة بين العقل والوجدان (أو بين العقل والقلب) كما يقولون

(١) المنار: رواه أبو الشيخ ابن حبان في العظمة عن أبي هريرة بسند ضعيف، ورواه من طريقه ابن الجوزي في الموضوعات، ولكن له روايات أخرى منها رواية الديلمي في مسند الفردوس عن أنس بلفظ (ثمانين سنة) وفي رواية موقوفة على ابن عباس «خير من قيام ليلة» وشهرة هذا المعنى قال الغزالي وردت السنة بكذا

يرى القارئ أنه لم يكن جلاد بين العلم والدين ، وإن كان بين أهل العلم أو بين أهل الدين شيء من التخالف في الآراء شأن الأحرار في الأفكار الذين أطلقوا من غل التقييد ، وعوفوا من علة التقليد ، ولم يكن يجري فيما بينهم اللمز بالألقاب فلا يقول أحد منهم لآخر إنه زنديق أو كافر أو مبتدع أو ما يشبه ذلك . ولا تتناول أحداً منهم يد بأذى إلا إذا خرج عن نظام الجماعة وطلب الإخلال بأمن العامة فكان كالعضو المجذّم فيقطع ليذهب ضرره عن البدن كله

(ملازمة العلم للدين ، وعدوى التعصب في المسلمين)

متى ولع المسلمون بالتكفير والتفسيق ، ورُمي زيد بأنه مبتدع وعمرو بأنه زنديق ؟ أشرنا فيما سبق الى مبدإ هذا المرض ونقول الآن إن ذلك بدأ فيهم عند ما بدأ الضعف في الدين يظهر بينهم وأكلت الفتن أهل البصيرة من أهله (تلك الفتن التي كان يثيرها أعداء الدين في الشرق وفي الغرب لخفض سلطانه ، وتوهين أركانه) وتصدّر للقول في الدين برأيه من لم تمتزج روحه بروح الدين ، وأخذ المسلمون يظنون ان من البدع في الدين ما يحسن إحداثه لتعظيم شأنه تقليداً لمن كان بين أيديهم من الأمم المسيحية وغيرها . وأنشأوا ينسون ماضي الدين ومقالات سلفهم فيه ويكتفون برأي من يرونه من المتصدرين المتعالمين ، وتولى شؤون المسلمين جهالهم ، وقام بإرشادهم في الأغلب ضُلّالهم ، في أثناء ذلك حدث الغلو في الدين واستعرت نيران العداوات بين النظار فيه وسهل على كل منهم لجهله بدينه ان يرمي الآخر بالمروق منه لأدنى سبب . وكلما ازدادوا جهلاً بدينهم ازدادوا غلواً فيه بالباطل ودخل العلم والفكر والنظر (وهي لوازم الدين الاسلامي) في

جملة ما كرهوه ، وانقلب عندهم ما كان واجباً من الدين محظوراً فيه

لا أكاد أخطئ القاريء اذا زعم ان المسلم إنما استفاد اسم زندقة وتزندق ومتزندق وزنديق من فضل ماعلمه جيرانه اذ كانوا يقولون : هرتقة وتهرتق وهو هرتوقي . أو مايماثل ذلك . أو زعم ان قد فشت في المسلمين سرعة التكفير بطريق العدوى من أهل الملل المتشددة وان الذي سهل سريان العدوى بتلك السرعة الشديدة هو ضعف المزاج الديني عند المسلمين بجهلهم بأصوله ومقوماته ومتى ضعف المزاج استعد لقبول المرض كما هو معلوم .

ان المسلمين لما كانوا علماء في دينهم كانوا علماء الكون وأئمة العالم ، أصيبوا بمرض الجهل بدينهم فانهزموا من الوجود وأصبحوا أكلة الآكل وطعمة الطاعم ، هل وقف الجهل بالمسلمين عند تكفير من يخالفهم في مسائل الدين أو يذهب مذهب الفلاسفة أو مايقرب من ذلك ؟ لا بل عدا بهم الجهل على أئمة الدين وخدمة السنة والكتاب فقد حملت كتب الامام الغزالي الى غرناطة وبعد ما انتفع بها المسلمون أزماناً هاج الجهل بأهل تلك المدينة وانطلقت ألسنة المتعالمين من البربر بتفسيقه وتضليله فجمعت تلك الكتب خصوصاً نسخ « إحياء علوم الدين » ووضعت في الشارع العام في المدينة وأحرقت . قال قوم يعدون أنفسهم مسلمين في ابن تيمية — وهو أعلم الناس بالسنة وأشدهم غيرة على الدين — : إنه ضال مضل . وجاء على أثر هؤلاء مقلدون يملأون أفواههم بهذه الشتائم وعليهم اثمها واثم من يقفوهم بها الى يوم القيامة

اهمال آثار السلف وحال علوم الدين وطلابها

أهمل المسلمون علوم دينهم والنظر في أقوال سلفهم حتى انك لا تجد اليوم في أيديهم كتاباً من كتب أبي الحسن الاشعري ولا أبي منصور الماتريدي ولا تكاد ترى مؤلفاً من مؤلفات أبي بكر الباقلاني أو أبي اسحق الإسفرايني . واذا بحثت عن كتب هؤلاء الائمة في مكاتب المسلمين أعياك البحث ولا تكاد تجد نسخة صحيحة من كتاب . كتبت على القرآن تفاسير كثيرة في القرن الثالث من الهجرة وما بعده الى السادس منها تفسير الطبري وتفسير أبي مسلم الاصفهاني وتفسير القرطبي وتفسير الجصاص وتفسير الغزالي وتفسير أبي بكر ابن العربي وكثير غيرها وفيها من آراء اولئك الأئمة ووجوه استنباط الحكم والاحكام مالا غنى لطالب علم الدين عنه . فهل يجد الباحث المجد نسخة من هذه الكتب الجليلة يمكن الوثوق بصحتها الا بطريق المصادفة وحسن الاتفاق ؟ وهل يليق بأمة تدعي أنها على دين وأن لها فيه سلفاً صالحاً أن تهجر آثار سلفها وتدع ما كتبوا طعمة للبث وفراشاً للتراب ؟ هل وقع مثل ذلك من المشتغلين باللاهوت المسيحي في زمن من الأزمان؟

ان حالة طلبة العلوم الدينية الاسلامية أصبحت مما يرثى له في أكثر بلاد المسلمين فهم لا يقرأون من كتب الكلام الا مختصرات مما كتب المتأخرون يتعلم أذكاهم منها ما تدل عليه عبارتها ولا يستطيع ان يتعلم البحث في أدلتها وتصحيح مقدماتها وتمييز صحيحها من باطلها وإنما يتلقاها كأنها كتاب الله أو كلام نبيه صلى الله عليه وآله وسلم يأخذ ما فيها بالتسليم . فاذا ناظره مناظر في بعض قضاياها وعجز عن تصحيحه قطع الجدال بقوله

هكذا قالوا وان لم يكن القول منفقاً عليه بل قد يكون القول مما لم يقل به سوى صاحب الكتاب الذي اشتغل به وربما كان صاحب الكتاب ممن لو رآه أحد من السلف لم يرضه تلميذاً يعي عنه مايقول .

كاد ينقطع طلب العلوم الدينية في سوريا والحجاز وتونس والجزائر وقل جداً في المغرب الاقصى ولم يبق الاهتمام به الا في بعض الصحارى وذلك إما لصعوبة طرق التعليم واقتضائها الزمن الطويل وحاجات الناس مانعة لهم من إفناء أعمارهم في عمل لابد من حاجتهم . وإما لتفضيل الآباء تربية أبنائهم على الطرق الحديثة في أوربا أو في المدارس الاخرى وليس فيها من الدين شيء وان كان فيها شيء منه فهو مما لابد تعليما دينياً ينظر اليه . وإما للفتور والجمود ، الذي نشأ عن التقليد والجمود ؛ وبذلك تجد المسلمين قد تولاهم الجهل بدينهم ؛ وأخذتهم البدع من جميع جوانبهم ؛ وانقطعت الصلة الحقيقية بينهم وبين سلفهم ؛ حتى لو عرض على الجمهور الاعظم منهم ما اتفق عليه السلف من الأحكام لأنكروه واستغربوه وعدّوه بدعة في الدين وصح فيهم ماقال عمر الخيام في بعض أشعاره الفارسية مخاطباً للنبي عليه الصلاة والسلام : « ان الدين جاؤا بعدك زيّنوا لك دينك ووشّوه وزركشوه حتى لو رأيته أنت لأنكرته » فهذا الصنف من المسلمين وهو معظمهم قد أنكر دينه الحق وعاداه ونقم على أهله القائمين بخدمته وإنما اصطفى لاعتقاده بعض أفراد لم يعرف عن السلف اختصاصهم بالثقة ولم يسمح الدين باختصاصهم بالتقليد . فاذا وقع عن هذا الصنف مافيه أذى للعلم وأهله فهل يعد ذلك واقعاً من دين الاسلام دين محمد صلى الله عليه وسلم دين القرآن دين السنة الثابتة دين الخلفاء الراشدين ومن تبعهم من السلف الأولين ؟؟

متابعة العلم للإسلام ومسايرته له [illegible]

العلم، ولا ألمّ [illegible] أخلاقهم عن [illegible]

فكلما بعد عنهم علم الدين بعد عنهم علم الدنيا وحرموا ثمار العقل ، وكانوا كلما توسعوا في العلوم الدينية توسعوا في العلوم الكونية ، وضربوا الزمان بسوط من الرقة أما غيرهم فكلما اتصلوا بالدين وجدّوا في المحافظة عليه أنكروا العلم وتجهموا وأكفهروا وجوههم لقاتلهم ، وكلما بعدوا من الدين سالمهم العلم وبش في وجوههم ولذلك يصرحون بأن العلم من ثمار العقل والعقل لا يصح أن يكون له في الدين عمل ، ولا أن يظهر منه فيه أثر ، والدين من وجدانات القلب ولا علاقة بين ما يجد القلب وما يكسب العقل ، فالفصل تام بين العقل والدين ولا سبيل الى الجمع بينهما ، سامحهم الله فيما يسمونه تسامحا مع العلم ، وهم يصرحون بأنه عدوه الذي يستحيل ان يكون بينه وبينه سلم ،

هل عرفت السبب في اضطهاد المسلمين للعلم ؟ أقول اضطهاد ولا أريد به ما كان عند الامم المسيحية من الاشتداد في إبادة أهله والتنكيل بهم واختراع ضروب التعذيب والتفنن في صنع آلات الهلاك مع الأخذ بالشبهة ، والاكتفاء في الإعدام بمجرد التهمة ، فان ذلك لم يقع عند المسلمين لا أيام علمهم ، ولا في أزمنة جهلهم ، ولكن أريد من الاضطهاد الإعراض عن العلم ورمي الألفاظ السخيفة في وجوه أهله وقذفهم بشيء من الشتائم مع الابتعاد عنهم ، لاريب أنك قد أيقنت بأن السبب في هذا الذي يسميه الأديب اضطهاداً إنما هو جهلهم بدينهم ، فالدواء الذي ينجع في شفائهم من هذا الداء لا يكون الا ردّهم الى العلم بدينهم والتبصر فيه للوقوف على أسراره والوصول الى حقيقة مايدعو اليه ، كان الدين

واسطة التعارف بينهم وبين العلم فلما ذهبت الواسطة تناكرت النفوس وتبدل الأنس وحشة

الدعاة الى الاسلام: فهل قام بينهم دعاة للعلم حقيقيون، أودعاة لأصل الدين عارفون، ثم استعصت قلوب المسلمين عليهم، وجمحت نفوسهم عن الانقياد لهم؟ وهل كثر أولئك الدعاة في أطراف بلاد المسلمين كثرتهم في أوربا من أواسط القرن السابع عشر من التاريخ المسيحي الى ان ظهرت قوة العلم في أوائل القرن السابع عشر وفيما بعد ذلك؟ لا. إنما رأينا من الصادقين أفراداً يظهرون متفرقين في عصور مختلفة ربما لا يجتمع ربعة منهم فأزيد في قرن واحد ويأخذون في العمل لما وجهوا اليه ثم لا يكادون ينطقون ببعض الكلم فيحس الناس بهم فيأخذ المستبد أهبته لمفارقة ما كان عليه واتباعهم حتى تشمر السياسة (نعوذ بالله منها) بما عسى يكون من أمرهم فتخمد أنفاسهم، قبل ان يبلغوا من قلب واحد ما أرادوا من غرس أفكارهم، فينطفئ النور، ويتلهم الديجور، فهل يعد الأديب هذه الضربات من أيدي أرباب السياسة اضطهاداً للعلم لأجل حماية الدين؟ أنزه كل أديب عن ان يظن ذلك وإنما هي صدمات تقع على الدين لا تختلف عن أمثالها مما يصيبه منهم مباشرة فلا تعد حجة على الدين في نظر المنصف

المقلد دون المقلد: ربما يقول القائل: ان كان المسلمون قد أخذوا الجمود في التقليد والنفرة من العلم والاعتقاد بالعداوة بين الدنيا والآخرة وبين العقل والدين وما أشبه ذلك مما هم فيه وورثوه عن الأمم السابقة عليهم خصوصاً أقرب الملل اليهم، فما بالهم لم يقلدوا المسيحيين في الحرص على نشر دينهم والتوسع في علومه مشتغلا بما أخذوه عنهم ولم يقسموا أنفسهم قسمين كما قسم المسيحيون إخوانهم قسمين قسما ينقطع الى الآخرة في الأديار والصوامع

وقسما يشتغل بالدنيا ليقيت نفسه وبقيت أهل القسم الأول يحمي نفسه ويحميهم من العدوان ؟ ومالك ترى المسلمين خلوا وارتخت أعصابهم وسئموا النظر في علوم دينهم كما ذكرت ثم صاروا أبعد الناس من معرفة الطرق لتحصيل الغنى والثروة ، والقبض على ناصية القوة وصولجان العزة ، وطرحوا أنفسهم في تيار من القدر كما يقولون يجري بهم الى حيث لا يعلمون ؟ ثم هم مع ذلك أحرص الناس على حياة ؟ وأشدهم لهفاً على الحطام ، فلا ترى الجمهور منهم في شيء للدين ولا للدنيا فما هذا التناقض ؟

فأقول له : انك قد نسيت ان المقلد يكون دائماً أحط حالا وأخس منزلة من المقلد . فالمقلد إنما ينظر من عمل المقلد الى ظاهره ولا يدري سره ولا ما بني عليه . فهو يعمل على غير نظام ، ويأخذ الأمر لا على قاعدة ، ولذلك سقط المسلمون في شر مما كان عليه مقلدوهم لاسيما انهم قد خلطوا في التقليد وأضافوا الى دينهم مالا يمكن ان يتفق معه فصاروا في مثل حال المتخبط الذي تنازعه عدة قوى يذهب مع كل منها آناً ثم ينتهي أمره بعد الخيبة بالتعب الشديد فيستلقي الى أن يستريح فينهض الى العمل على هدى أو يموت . لما كان المسلمون علماء كانت لهم عينان عين تنظر الى الدنيا والأخرى تنظر الى الآخرة فلما طفقوا يقلدون أغمضوا احدى العينين وأقذوا الأخرى بما هو أجنبي عنهم ففقدوا المطلبين ولن يجدوهما الا بفتح ما أغمضوا وتطهير ما أقذوا

الاصلاح والمصلحون : للقائل أن يقول : كيف تدعي أن دعاة العلم والدين قليل بين المسلمين مع أننا نسمع أصواتهم تتلاقى في جو مصر وسوريا وغيرهما من البلاد في هذه الأيام . كل يقول : ديني ملتي الاسلام مسلمون قرآن سنة :

بجد الاسلام القديم، سادة الصالحون، تعلم تعليم، كتب قديمة كتب جديدة، وما يشاكل ذلك مما يظهر منه ان الداعين الى العلم أو المنبهين الى الاخذ بأصول الدين الاسلامي كثيرون ولا نرى مع ذلك من أغلب المسلمين الا آذاناً صماً وأعيناً عمياً وصداً عما يدعو اليه هؤلاء؟ ويمكنني أن أقول له: ان الصادق في هؤلاء ليس بكثير منه، والجمهور منهم قلما يخلص قصده، وما تجد أكثرهم الا متجرين بهذه الكلمات الكسب بعض دريهمات: ويظهر لك ذلك من أنهم يلفظون هذه الاسماء وقلما يدرسون شيئاً من مدلولاتها ليقفوا على الحقيقة منه، وانما يلقف بعضهم عن بعض ظواهر كالزبد لا تمكث في الارض، اما الصادقون على قلتهم فقد بدأ بعض الناس يسمعون ما يقولون، ويطلبون الارشاد مما يعلمون، خصوصاً في أمر الدين والجمع بينه وبين مصالح الدنيا لا سيما في بلاد الهند وبين مسلمي روسيا. ولكن الاصلاح ليس ريحاً تهب فتمسح الأرض من الشرق الى الغرب في وقت قريب فانتظر

قد يقول القائل: لم لم يكثر هؤلاء كثرتهم بين الأوربيين فيما مضى حتى يغلبوا الظالمين من أهل السياسة ويستميلوا العادلين منهم اليهم، وينهضوا بالمسلمين من هذه الرقدة التي طال أمدها عليهم؟ ولم لا يزال أهل البصيرة منهم قليلين متفرقين يهمسون بالقول ولا يجهرون، وليس للعلم فيهم دعاة عاملون؟ أليس ذلك سبيلا لمؤاخذة الاسلام وحجة عليه؟؟ وأقول له: ان حظ المسلمين لا يصح ان يكون أسعد من حظ مقلديهم بل المنتظر ان يكون أتعس وقد أقامت المسيحية ما يزيد على الف سنة قبل ان يظهر فيها العلم أو تنشأ الحرية الشخصية؛ أو تسري فيها الحركة العملية، الى ما فيه صلاح الجمعية الانسانية، مع توالي المنبهات؛ وتواصل

الصدمات إثر الصدمات ، ولم يمض على المسلمين من يوم استحكمت فيهم البدعة وأطبقت عليهم ظلم المحدثات ودخلوا جحر الضب الذى دخله من كان قبلهم الا أقل من ثمانمائة سنة فلم يمض عليهم وهم في بدعهم الجديد ذلك الزمن الذى قد يكون عمرا لمثل هذه الحالة ثم تقضي نحبها في آخره . وما أظن ان يمر على المسلمين مثل تلك المدة قبل ان يبلغوا من صلاح الدين والدنيا ماهم أهل له

الفرق بين التعصبين: وعلى كل حال لا يجوز فى شريعة الإنصاف أن يذكر المسلمون فى جانب جمهور المسيحيين اذا ذكر الغلو فى التعصب الدينى فضلا عن ان يقال ان المسلمين أشد إفراطا فيه . والشاهد يدلنا على انه قد يكون للمسلمين فى التعصب ألفاظ وكلمات ، ولكن الذي يكون من جمهور المسيحيين إنما هو أعمال وضربات في المعاملات ؛ وما على طالب الحقيقة الا ان يسيح بفكره فى المستعمرات الهولاندية فى الشرق ومثل مملكة الترنسفال قبل سقوطها وبلاد الناتال فى الجنوب ثم يرجع الى بعض بلاد الروسيا فى الشمال من قبل عشرين سنة ثم يرجع الى الجزائر وما يليها فى جهة الغرب ليعلم كيف تكون الشدة فى المعاملة مع غير أهل المذاهب المسيحية وكيف يبلغ التعصب من أهله حدا تنظر اليهم فيه الانسانية شزراً ، ولا تقبل لهم فيه المدنية عذراً ،

ماعلى الباحث الا أن ينظر فيما يكتبه الكتاب الفرنسيون ليعلم أنهم فى حيرة من أمرهم مع المسلمين . يريدون أن تكون لحكومتهم طمأنينة فيما ملكت من بلاد المسلمين ولكن حكومتهم لاتجد السبيل اليها مع ما اتخذته قاعدة لعملها وهو الشدة والافراط فى القسوة على المسلمين خاصة

وحدهم دون سواهم، وأرباب الاقلام يبحثون عن تلك الطمأنينة مع المحافظة على تلك القسوة ويأبي الله أن يهديهم على مايبحثون عنه لأنهم يطلبون الجمع بين الضدين في موضوع واحد وهو محال كما يقرره فلاسفتهم

رأي هانوتو الاخير في معاملة المسلمين

موسيو هانوتو أطلق لقلمه من سنوات أن يجري في البحث عن طريقة حكم للمسلمين وقاعدة لمعاملتهم في البلاد التي يحكمها الفرنسيون وجاء في فصول مقاله بما لايزال يذكره القراء، ثم بعد ان قتل المسألة علما ثلاث سنين رجع الى موضوع البحث هذه السنة بلسان غير الذي كان ينطق به ورأي غير الذي كان يصدر عنه، وإني ذاكر ملخص مانقلته الجرائد من خطابه الذي ألقاه في المجمع الجغرافي في شهر مارس من هذه السنة متعلقاً بأفريقيا واقتصر منه على مايتعلق بما نحن فيه وهو بالمعنى: « ان القواعد الجديدة التي يجب ان يكون عليها العمل في أفريقيا هي مخالفة للقواعد القديمة التي كانت تجري عليها السياسة الاستعمارية فيما مضى من الزمان » (أي قبل ساعة وقوف الخطيب لالقاء خطابه) ثم بين هذه القواعد الجديدة التي يعامل بها المحكومون فقال انها الامن والسلم ثم قال: « إننا مدينون لهم بالعدل والسلم كما اننا مدينون لهم بالتساهل الديني ولست أشير الى هذا الموضوع الخطير الذي له علاقة بكل مايثير النفس البشرية الا اشارة خفيفة فاقول: ان التمدن الاوربي يجد في طريقه في أفريقيا لاسيما في شمالها ذلك الدين القديم المعظم الذي هو دين الاسلام والذي هو في هذه الجهات (شمال أفريقيا) أكثر نشاطاً منه في غيرها، وهذا الدين يدعو الى اله واحد ويجعل الايمان بالتوحيد مصدراً لكل الفضائل

الذاتية والاجتماعية ويستوي من نؤمن به استبلاء تشد لن لنا ... على التفلت منه . فمن المفروض علينا التساهل في هذا الشأن الى ليس التساهل بكاف وحده فمن الواجب ان ندرس هذا الدين ونبذل جهدنا في فهمه . وعلينا ان نتخذ الكلمة الاسلامية « لا إكراه في الدين » شعاراً لنا لانخرج عن حدود معناها . وان نحترم الدين الاسلامي ونحميه من كل طارئ سوء . ولا بأس بذكر كلمة للأمير عبد القادر الجزائري في هذا المقام وهي : « إن أصحاب الأديان الثلاثة يشبهون ثلاثة اخوة من ثلاث أمهات » انتهى محصل كلام هانوتو . قبل الكلام عليه أسأل القارئ هل سمع مثل هذه الكلمة ممن يماثل الأمير عبد القادر في نسبه الى الى صاحب الرسالة ومقامه في أهل دينه ومكانته من سلامة العقيدة في في مذهبه ؟ أو سمع مايقرب منها ممن لايدانيه من أهل الملل الاخرى ؟

ترى هانوتو يرشد أهله الى اتخاذ سبيل جديدة في سياسة المسلمين وهذا الجديد هو السلم والأمن والتساهل مع المسلمين في أن يستمر المسلمين واحترام حقوقهم وتركهم يعملون بدينهم . وعد هذا مبدأ جديداً لم يسبق الجري على مثله . وهل تجيب الحكومة الفرنسية طلبه ؟ مسألة فيها نظر . فهل يليق بمنصف ان يذكر المسلم اذا ذكر التعصب مادام في الكون مثل هذه الدرجة منه ؟

سياسة الانكليز في التسامح

ثم نحن لاننكر ان بين الأمم الاوربية أمة تعرف كيف تحكم من ليس على دينها وتعرف كيف تحترم عقائد من تسوسهم وعوائدهم وهي الأمة الانكليزية فهي وحدها الأمة المسيحية التي تقدر التسامح حق قدره .

لا يصعب علينا أن نقول: إن منشأ ذلك أن أمراءها في الحروب الصليبية وقوّاد جيشها كانوا من أشد الصليبيين علاقة بسلطان المسلمين وأمراء جيشه. وقد امتاز الانكليز في ذلك الزمن المظلم بدرس عقائد المسلمين وعاداتهم فحملوا من ذلك شيئاً كثيراً الى بلادهم ولم تحجبهم غشاوة التعصب عن إبصار ضوء الحق وظهر أثر ذلك في أقلام كثير من كتابهم مثل والتر سكوت وشيلي وغيرهما قبل أن يظهر في أقلام الكاتبين من غير الانكليز بأزمان طويلة. فلنا أن نقول ولا نخشى لائماً: إن هذه الخصلة الشريفة — خصلة إطلاق الحرية لأهل الدين يتمسكون بأداء فرائضه مع احترام ما يحترمون — هي من أجلّ الخصال ورثها غير المسلمين عن المسلمين. وهل أجد من يأبى عليّ القول بأن الاسلام السليم من البدع هو أستاذ الانكليز وعنه اخذوا هذه الخلة؟ الا ترى ان نظامهم في ذلك يقرب من نظام المسلمين يوم كانوا مسلمين: يكتفون من الناس بالخضوع للقوانين وأداء ما فرض عليهم من الضرائب ثم يحفظون نظام العدل بينهم بقدر ما تسمح به السياسة لا يفرقون بين دين ودين. وهكذا كان حال المسلمين وان كان ذلك على قاعدة ابرّ وارحم

خاتمة: فان قال قائل: أليس لهذا المقال من آخر؟ أليس في طول الكلام مجلبة الملل، وترويج الكسل، قلت اني أوجه كلامي هذا الى أهل النهم الى الفهم، وأرباب الشره الى المعرفة، ولا أظن هؤلاء الا طالبين ما هو أوسع من هذا المقال وأطول منه اضعافاً مضاعفة لأن الموضوع جليل، والكلام فيه مهما كثر قليل، وأما القارئ الملول، فعقله مدخول، وعزمه مفلول، وفكره مفلول، وهو قصير الهمة فيما يعسر إذا طال، فلا

[illegible]

البدع والمحدثات فيه والعلل التي نشبت بالمسلمين بسببها فرصة أخرى

وقبل أن أترك القارئ أنبه الى أن ما أجمل في هذه الفصول لم نقصد به الطعن في حال أحد من الناس ولا طائفة من الطوائف كما يعرفه القارئ نفسه من لباس المعاني وما يكسوها من الأدب والتنزه عن كل كلمة تشم منها رائحة العيب على آخر . وقد يعلم من هذه النزاهة ان هذا رأي طبخناه لنطعمه بأنفسنا ، وننفق منه على من تلزمنا نفقته من أهلنا ، ولم يكن يخطر ببالنا عند ما أجدنا طبخه ان نفيض منه على غيرنا ، لكن اذا عشا السارى الى ضوء نارنا ، وطلب القرى منا قانا سمناه ما لدينا ، وعرضنا عليه أخرى من نفس الحياة ، واهنأ من خلق الأناة ، ان شاء الله ، اه

(المنار) من عجيب الاتفاق أنه بعدما كتب هذه المقالات ونشر بعضها ظهرت تلك المقالة لمستر كوربت الانكليزي التي نشرت في المؤيد فجاءت شاهداً مؤيداً لما كتب الكاتب في فضل الإسلام وفي صفات الانكليز وسنلحق قوله في الاسلام بالمقالات اذ نطبعت على حدتها في كتاب . وعدنا القراء بان هذا الامام وعد بان يكتب مقالا آخر ملحقاً بهذا في بيان ان ما طرأ على الاسلام من البدع وما لحقها من الجمود سيكون هو السبب في الرجوع الى الأصول وإعادة مجد الاسلام ولعلنا ننشر في الجزء الآتي

وقد بلغ كتاب (الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) نحو مئتي صفحة وسنزيده شهادة الكاتب الانكليزي ثم مقال الامام الموعود به . وقد طبع على ورق جيد وجعلنا ثمنه مع هذا خمسة قروش صحيحة فقط رغبة في سعة انتشاره